لماذا هذا الكتاب؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم بالقلم والصلاة والسلام على النبي الأكرم، الذي بدأت رسالته بفريضة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ فكانت التتويج للرسالات والنبوات التي بدأت يوم علم الله آدم الأسماء كلها..

وبعد

فمع أنوار فجر العام الهجري ١٤١٨هـ، وحلول ذكرى أربعة عشر قرنًا على الفتح الإسلامي لمصر الذي بدأ بصلاة أول يوم عيد للأضحى على أرض «العريش» سنة ١٨هـ سنة ٦٣٩م تمنيت على أمتي ـ بمصر ـ وكل بقاع عالم الإسلام؛ أن تحتفل بهذه الذكرى.. ذكرى الفتح الذي دخلت به مصر في دين الله، وفي الشريعة الخاتمة المصدقة بكل الكتب، والوارثة لجميع الرسالات، والمهيمنة ـ بالإضافة والتصحيح ـ على سائر الشرائع الإلهية التي نزل بها الوحي الأمين على قلوب الأنبياء والمرسلين ـ عليهم صلوات الله أجمعين.

تمنيت أن تحتفل الأمة ـ كل الأمة ـ بهذه الذكرى؛ لأن هذا الفتح الإسلامي لمصر قد أحيا كنانة الله في أرضه، وأخرجها من قهر حضاري ـ إغريقي/ روماني/ بيزنطي ـ دام عشرة قرون، فأحيت الحضارة على امتداد الأمة وعبر تاريخها.

وتجسيدًا لهذه الأمنية قمت سنة ١٤١٨ بإلقاء عدد من المحاضرات حول الفتح الإسلامي لمصر، وأبعاده ودلالاته وآثاره ثم كتبت دراسة موجزة جعلت عنوانها: [عندما دخلت مصر في دين الله]، ونشرتها في عدد من الصحف السيارة ـ منها «الوفد» و«صوت الأزهر»، ثم أخرجتها في كتاب صغير[1].

وكان أملي، وكانت أمنيتي، أن تكون هذه المحاضرات وهذه الدراسة ـ عن الفتح الإسلامي لمصر ـ دعوة لتحتفل الأمة بهذه الذكرى احتفالًا كبيرًا، يمتد سنوات، تعقد فيها المؤتمرات والمهرجانات والفعاليات الثقافية والعلمية والدينية؛ التي تمثل دفعة في ميادين الإحياء الحضاري، الذي تحتاجه الأمة؛ كي تواجه التحديات الشرسة التي تسعى كي تقطع عليها طريق التقدم والتحرر والنهوض.

(١) نهضة مصر ـ سلسلة «في التنوير الإسلامي» سنة ١٩٩٧م.

obeikandl.com

لكن الذي حدث ـ يومئذ ـ كان مفاجئًا لي بل ومذهلًا، ليس لأن هذه الدعوة لم تجد سميعًا ولا ملبيًا، وإنما لكم الهجمات والافتراءات والشبهات التي انهالت على الفتح الإسلامي لمصر، والتي تمثلت في كتب صدرت، ومقالات كتبت، تشكك في الهوية الإسلامية لمصر، حتى لتعتبر هذا الفتح الإسلامي نكبة مثلت التدمير لهذا البلد الأمين!!.

ومع أني قد كتبت كثيرًا في الدفاع عن الهوية الإسلامية العربية لمصر، وخضت الكثير من المعارك الفكرية ضد النزعات الطائفية والعنصرية التي عمل أصحابها على انتزاع مصر من هويتها العربية الإسلامية، فلقد ظل القيام بعمل فكري يبدد شبهات الأكاذيب التي انتشرت ضد الفتح الإسلامي لمصر، وضد هويتها العربية الإسلامية. ظل القيام بإنجاز هذا العمل الفكري في مقدمة مفردات المشروع الفكري الذي وهبته ما وهبني الله من حياة وجهد واجتهاد.

صحيح أن التوفيق الإلهي قد جعل هذا الفن من فنون التأليف ـ عن الحقائق والشبهات ـ معلمًا من معالم المشروع الفكري الذي توفرت على إخراجه فتوالت كتبي:

١ - [حقائق وشبهات حول القرآن الكريم].

٢ - [حقائق وشبهات حول السنة النبوية].

٣ - [حقائق وشبهات حول معنى النسخ في القرآن الكريم].

٤ ـ [حقائق وشبهات حول السماحة الإسلامية وحقوق الإنسان].

٥ ـ [حقائق وشبهات حول مكانة المرأة في الإسلام].

٦ ـ [حقائق وشبهات حول الحرب الدينية والجهاد والقتال والإرهاب].

٧ ـ [حقائق وشبهات حول السنة والشيعة].

٨ ـ [حقائق وشبهات حول الوطنية والقومية والجامعة الإسلامية][1].

إلا أن إبراز حقائق الفتح الإسلامي لمصر، وتبديد الشبهات التي فاضت أمواجها حول هذا الحدث التاريخي والحضاري ظل الواجب الذي ينتظر الأداء، والمهمة التي تحفز العقل على تهيئة أسباب الإنجاز.

(١) انظرها في طبعة دار السلام القاهرة.

obeikandl.com

ولأني أريد لهذا العمل الفكري أن يكون حاسماً للجدل الذي دار حول هذا الحدث، فلقد قضيت سنوات أغوص في المصادر الأصلية، والمراجع المعتبرة التي تناولت الفتح الإسلامي لمصر- عربية وغير عربية- وأعايش الكتابات التي حاول أصحابها إهالة ركام الشبهات والافتراءات على هذا الفتح؛ لتكون المادة الفكرية «شهادات» أهل الذكر حول هذا الموضوع، **وحتى يكون هذا الكتاب أشبه ما يكون «بالوثائق» التي تقدم الحقائق وتدحض الشبهات، أكثر من كونه وجهة نظر لكاتب منحاز للهوية العربية الإسلامية التي أثمرتها الفتوحات الإسلامية.. والتي نقلت الشرق والحضارة والثقافة والتاريخ إلى طور جديد.**

نعم تلك هي طبيعة هذا الكتاب الذي أقدم بين يديه.. «وثائق شاهدة» و«شهادات موثقة» على الفتح الإسلامي لمصر- الذي هو نموذج مجسد لفتوحات الإسلام، التي حررت الشرق من غزوة القهر الحضاري: الإغريقي/ الروماني/ البيزنطي؛ التي دامت عشرة قرون ومن الاستبداد العنصري والطبقي للكسروية الفارسية، التي نافست القيصرية الرومانية في استعباد الشرق وقهر الملكات والطاقات لشعوبه طوال تلك القرون.

ومع هذه «الحقائق الموثقة» وبها يكون التبديد «الموثق» للشبهات والافتراءات التي انهالت على هذا الإنجاز التاريخي العظيم.

تلك هي مهمة هذا الكتاب؛ الذي نمهد لفصوله بالدراسة التي كتبناها في ذكرى أربعة عشر قرنًا على الفتح الإسلامي لمصر سنة ١٤١٨ هـ، والتي جعلنا عنوانها: [عندما دخلت مصر في دين الله].

obeikandl.com

عندما دخلت مصر في دين الله

فجر التوحيد والنبوات في مصر قبل الإسلام

بآدم ـ عليه السلام ـ بدأت مسيرة الإنسان على هذا الكوكب الذي نعيش فيه؛ فهو أبو البشرية، الذي خلقه الله وسواه ونفخ فيه من روحه.

ولطفًا من الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ بخلقه؛ اقترنت الرعاية الإلهية لهذا الإنسان بلحظات الخلق والاستخلاف والأمر والنهي والتكليف:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (البقرة: ٣٠ ـ ٣٣).

وبوحي الله لآدم ـ عليه السلام ـ بدأت النبوة والرسالة في المسيرة الإنسانية، مقترنة بلحظة استخلاف الله لهذا الإنسان، وتكليفه إياه.

وإذا كان آدم هو أبو البشر، وأول الأنبياء، وفاتحة المرسلين؛ فإن مشيئة الله قد اصطفت مصر ـ كنانة الله في أرضه ـ لتبدأ على أرضها هداية النبوة والرسالة منذ عصر وحياة آدم ـ عليه السلام ـ؛ ففي ربوعها كانت بعثة نبي الله إدريس ـ عليه السلام ـ الذي مثّل في سلسلة النبوة، ثالث الأنبياء، بعد آدم وشيث، والذي عاش وبعث في حياة آدم عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

وعن إدريس ونبوته تحدث القرآن الكريم فقال:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ (مريم: ٥٦ – ٥٧).

obeikandl.com

وعن ترتيبه وسبقه على درب النبوة والرسالة، ومن ثم سبق مصر على درب الاصطفاء هذا؛ يتحدث الذين كتبوا قصص الأنبياء فيقول الحافظ ابن كثير (٧٠١ ـ ٧٧٤هـ ١٣٠٢ ـ ١٣٧٣م) ـ (في البداية والنهاية) ـ عن إدريس، عليه السلام: «إنه كان أول بني آدم أعطي النبوة بعد جده آدم وبعد شيث، عليهما السلام».

وعن معاصرته لآدم، يقول ابن إسحاق (١٥١هـ ـ ٧٦٨م): «إنه أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثمان سنين..»[١].

ومعنى ذلك، أن مصر قد دخلت في دين الله، وعرفت التوحيد، وحيًا إلهيًّا ـ لا وضعًا بشريًّا وإفرازًا إنسانيًّا ـ وتلقت علم النبوة، واحتضنت الرسالة السماوية منذ فجر الإنسانية، وفي حياة أبي البشر آدم ـ عليه السلام ـ.

بل إن ما بقي لنا من قصص نبي الله ورسول مصر إدريس ـ عليه السلام ـ ليوحي بأن هذا العمق الحضاري والسبق في التمدن، اللذين تميزت بهما مصر قبل سائر الحضارات؛ إنما كانت لهما عروة وثقى بعلم النبوة الذي جاءها به رسولها إدريس ـ عليه السلام ـ.

فمنذ فجر الإنسانية، تميزت الرسالة التي شرفت بها مصر، بعلوم: الحكمة، والتمدن، والسياسة المدنية، وعلوم الكون، الأرضية منها والسماوية، إلى جانب علوم الشرع والدين حتى ليتحدث الذين أرخوا للحكمة والحكماء ـ ومنهم القفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (٥٦٨ ـ ٦٤٦هـ ١١٧٢ ـ ١٢٤٨م) ـ صاحب كتاب (تاريخ الحكماء) ـ وابن جلجل ـ داود بن حسان (بعد ٣٧٢ هـ ٩٨٢م) ـ صاحب كتاب (طبقات الأطباء والحكماء) ـ عن هذه الأبعاد العلمية والحضارية في رسالة رسول الله ونبي الله إدريس فيقولون: «إنه أقام ـ ومن معه ـ بمصر، يدعو الخلائق إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله عز وجل ـ ورسم لهم تمدين المدن، وجمع له طالبي العلم بكل مدينة، فعرفهم السياسة المدنية، وقرر لهم قواعدها وعلمهم العلوم. وهو أول من استخرج الحكمة، وعلم النجوم، فإن الله عز وجل أفهمه أسرار الفلك وتركيبه، ونقط اجتماع الكواكب فيه، وأفهمه عدد السنين والحساب..»[٢].

(١) الشيخ عبد الوهاب النجار (قصص الأنبياء) ص٢٤، طبعة بيروت ـ الثالثة ـ دار إحياء التراث العربي.

(٢) المصدر السابق ص٢٥، ٢٦ نقلًا عن (أخبار الحكماء) للقفطي.. وانظر كذلك (طبقات الأطباء والحكماء) لابن جلجل ص٥، ٦. تحقيق: فؤاد سيد. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م.

obeikandi.com

ففي مصر بدأت بواكير التوحيد في الألوهية، وحيًا سماويًّا، منذ عصر آدم ـ عليه السلام ـ وكما علّم الله آدم الأسماء كلها؛ أوحى ـ سبحانه وتعالى ـ إلى نبي مصر إدريس علوم الحكمة والتمدن والسياسة المدنية وحقائق العلوم الطبيعية، فعلّمها للمصريين؛ لتتواصل ومضات التوحيد الديني مع عبقرية العلوم الحضارية على أرض مصر، جيلًا بعد جيل ـ صعودًا تارة وهبوطًا تارة أخرى ـ منذ فجر الإنسانية وإلى أن دخل أهلها ـ بالفتح الإسلامي لأرضها ـ في دين الله أفواجًا، وذلك عندما اكتمل وتم دين الله الواحد بنبوة ورسالة وشريعة محمد بن عبد الله، عليه وعلى كل الأنبياء والرسل أفضل الصلاة وأزكى السلام.

***

وعبر هذا التاريخ المصري ـ الذي هو أطول وأعرق ما حفظت ذاكرة الإنسانية من التاريخ ـ ظلت ومضات التوحيد الديني في مصر شاهدة على انتماء المصريين إلى دين الله، ولقد تمثل ذلك فيمن زارها وعاش فيها من الأنبياء والمرسلين وفيمن ولد فيها ونشأ وبعث منهم ـ ممن قص الله علينا قصصهم في القرآن الكريم ـ وأيضًا في حكمائها، الذين جددوا الدعوة إلى التوحيد، ورفعوا راياته في مواجهة طوارئ الوثنية ـ والذين قد يكونون أنبياء ورسلًا ممن لم يرد ذكر لأسمائهم في القرآن الكريم:

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾ (النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥).

فإلى مصر رحل إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ وهو أبو الأنبياء ـ وكان ذلك في عصر الهكسوس (١٦٧٥ ـ ١٥٨٠ق.م)

obeikandl.com

ـ ومن بنات مصر ـ هاجر، عليها السلام ـ أنجب نبيَّ الله ورسوله إسماعيل، عليه السلام، الذي هو أبو العرب العدنانيين، فبمصر ارتبط أبو الأنبياء وأحد أولي العزم من الرسل والخليل الذي وصفه القرآن «بالصديق» ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ (مريم: ٤١) ورفع لواء التوحيد في مواجهة الشرك وعبادة الأصنام.

وإلى مصر جاء يوسف ـ عليه السلام ـ وفيها أوحي إليه ربه، وبها بلغ الرسالة وعمل وساس وأصلح وكان ذلك على عهد الأسرة الخامسة عشرة ـ التي يبدأ حكمها سنة ١٦٧٥ ق.م.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ (يوسف: ٤٦ ـ ٤٩) ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (يوسف: ٥٤ ـ ٥٦).

وباستدعاء من يوسف، جاء إلى مصر وعاش فيها، وعَبَد الله ودعا إليه نبي الله يعقوب، وعدد من بنيه.

وفي مصر ارتفعت دعوة التوحيد في مناجاة «أمنحتب الثالث» (١٣٩٧ ـ ١٣٦٠ ق.م) لله الواحد الأحد:

(أيها الموجد دون أن توجَد،
مصوِّر دونَ أن تُصوَّر، هادي الملايين إلى السبل،
الخالد في آثاره التي لا يحيط بها حصر).

وفي رسالة التوحيد التي دعا إليها «أمنحتب الرابع.. إخناتون (١٣٧٠ ـ ١٣٤٩ ق.م) ـ:

(أنت إله، يا أوحد، ولا شبيه لك.
لقد خلقت الأرض حسبما تهوى، أنت وحدك.
خلقتها ولا شريك لك
أنت خالق الجرثومة في المرأة.
والذي يذرأ من البذرة أناسًا.
وجاعل الولد يعيش في بطن أمه،
مهدئًا إياه حتى لا يبكي،
ومرضعًا إياه حتى في الرحم.
وأنت معطي النفس حتى تحفظ الحياة على كل إنسان خلقته،
حينما ينزل من الرحم في يوم ولادته،
وأنت تفتح فمه تمامًا،
وتمنحه ضروريات الحياة.)

● وعند رمسيس الثاني (١٢٩٠ ـ ١٢٢٣ ق.م) ـ الذي أخذ العلم والحكمة والأخلاق من تراث نبي الله إدريس، عليه السلام.

● وفي مصر ولد ونشأ وتعلم نبي الله موسى وأخوه هارون، عليهما السلام وأوحى الله إليهم، وأنزل عليهم التوراة والألواح ـ (حوالي ١٢٠٠ ق.م) ـ بالهيروغليفية.. لغة المصريين ـ فجابهت حرية التوحيد عبودية الفرعونية على ضفاف وادي النيل؛

● ليتجدد ويسطع إشعاع التوحيد عند رمسيس الثالث ـ الأكبر ـ (١١٩٢ ـ ١١٦٠ ق.م)، الذي قال ـ عندما احتدم القتال بينه وبين الوثنيين في معركة «قادش» ـ:

(رأيت الله في المعركة.
كان أقرب إليّ من جنودي.
هو الذي نصرني).

● حتى لقد غدت شريعة السماء وعقيدة التوحيد روحًا سارية في الثقافة المصرية، تغالب «غبش الشرك والوثنية» عبر التاريخ المصري الطويل، فتعكسها وتجسدها شهادة المصري، يوم الحساب، بين يدي الواحد الأحد ـ كما جاء في (متون الأهرام) ـ:

obeikandl.com

(أنا لم أشرك بالإله.
أنا لم أعقّ والديّ.
أنا لم ألوث ماء النيل.
أنا لم أصد الماء في موسم جريانه،
ولم أقم سدًّا في مجراه.
أنا لم أنقص القياس.
ولم أطفف الميزان.
أنا لم أطرد الماشية من مراعيها.
أنا لم أتسبب في بكاء أحد.
أنا لم أحرم إنسانًا من حق له.
أنا لم أختطف اللبن من فم الرضيع.
أنا لم أطفئ شعلة في وقت الحاجة إليها.
أنا لم أعترض على إرادة الله..)

● وإلى مصر، لجأ المسيح عيسى ابن مريم، مع أمه ـ سيدة نساء العالمين ـ طلبًا للأمن، ونجاة من طلب «هيرودس» (٤ ق.م ـ ٣٩م) ـ الذي أراد أن يقتله ـ وفي مصر، وعلى إحدى رباها، وجدوا الأمن والقرار ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ (المؤمنون: ٥٠).

وعندما جدد المسيح رسالة التوحيد، وأعاد الروح إلى الشريعة ـ بعد أن تحول التوحيد إلى «وثنية.. ومادية» على يد اليهود ـ احتضنت مصر على الفور دين التوحيد، الذي بشر به عيسى عليه السلام.

● فلما انحرفت الدولة البيزنطية ـ والمجامع التي انعقدت في المدن البيزنطية ـ «مجمع نيقية سنة ٣٢٥» و«مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١» بتوحيد النصرانية إلى «التثليث»؛ خاضت مصر معركة الدفاع عن التوحيد وذلك عندما رفعت «الأريوسية» نسبة إلى «آريوس» ـ أسقف الإسكندرية (٢٥٦ ـ ٣٣٦م) ـ رفعت لواء التوحيد في الألوهية، وذلك عندما تمسكت **بأن الله جوهر أزلي أحد، لم يلد**

obeikandl.com

ولم يولد، وكل ما سواه مخلوق، حتى «الكلمة» فإنها، كغيرها من المخلوقات، مخلوقة من لا شيء. وأن المسيح لم يكن قبل أن يولد وأن الله قد نجاه من الصلب ـ الذي وقع على الشبيه ـ.

ولقد حفظت مصر كل هذا الفكر التوحيدي، حتى بعد أن طغت عقائد قانون الإيمان البيزنطي على أغلب كنائس النصرانية، فضمت «مخطوطات نجع حمادي» ـ التي اكتشفت سنة ١٩٤٧م ـ أقدم الأناجيل التي حفظت نقاء التوحيد النصراني ـ «إنجيل توماس» و«إنجيل مريم المجدلية» و«إنجيل فيليب» و«إنجيل بطرس» و«إنجيل المصريين» ـ وغيرها ـ وفيها ثلاثة وخمسون نصًّا، تقع في ١١٥٣ صفحة، جمعت في ثلاثة عشر مجلدًا تجسد شهادة التاريخ على ولاء المصريين لعقيدة التوحيد، كما مثلتها النبوات والرسالات السماوية التي تعاقبت على ضفاف النيل.

وإذا كانت هذه الأناجيل قد نجت من الدمار الذي أصاب به البيزنطيون تراث التوحيد النصراني، عندما أحرقوا مكتبة معبد «سرابيوم» ـ بالإسكندرية ـ وغالبية مخطوطات مكتبة الإسكندرية، وأغلقوا أبوابها، بعد قتل آخر عميد لها؛ فإن بقاء هذه الأناجيل ـ التي سبق تاريخ تدوينها تاريخ تدوين الأناجيل المشهورة ـ متى، ومرقص، ولوقا، ويوحنا ـ بعشرين عامًا ـ قد فتح الباب لإعادة كتابة هذا التاريخ، الذي يتميز فيه دور مصر ـ صاحبة أول كنيسة نصرانية ـ على درب التوحيد الديني، منذ عصر آدم ـ ونبي مصر إدريس ـ وحتى رسالة المسيح، عليهم جميعًا الصلاة والسلام[1].

(١) انظر في حقائق هذا التاريخ الديني لمصر: (قصص الأنبياء) ص٨٤ ـ ٩٢، ١٢٠ ـ ١٤٤، ١٥٥ـ ٣٠٢، ٣٨٦. ورفاعة الطهطاوي (الأعمال الكاملة) جـ ٣ ص٨٠. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م. ود. عبد المنعم أبو بكر (إخناتون) ص ٩٧، ٩٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٦١م. ود. فؤاد حسنين علي (التوراة الهيروغليفية) طبعة القاهرة دار الكتاب العربي. وفؤاد أفرام البستاني (دائرة المعارف) المجلد الأول. طبعة بيروت سنة ١٩٥٦م ود. نعمات أحمد فؤاد، صحيفة (الأهرام) في ٣٠/ ١٠/ ١٩٩٦م. و(الموسوعة الأثرية العالمية) ـ إشراف ليونارد كوتريل ـ ترجمة: د. محمد عبد القادر محمد، د. زكي إسكندر. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م. ود. أحمد عثمان «مخطوطات نجع حمادي ـ أضواء جديدة على تاريخ المسيحية» مجلة (الهلال) عدد يونيه سنة ١٩٩٥م.

obeikandi.com

مصر تحت القهر الديني والحضاري

على امتداد نحو ألف سنة ـ ما بين غزو الإسكندر الأكبر (٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق.م) لمصر (٣٣٢ ق.م) والفتح الإسلامي لها (٢٠هـ ـ ٦٤٠م) ـ تعرضت مصر لمحنة عظمى وقهر شديد شمل جميع ميادين الدنيا والدين!.

● فعاصمتها «منف» التي كانت رمزًا لوحدتها واستقلالها وعزتها، منذ أن بناها الملك «مينا» (الألف الرابع قبل الميلاد) ـ بعد صراع مع الطبيعة حولت فيه مصر مجرى النيل العظيم، قبل الميلاد بنحو ٣٤٠٠ عام. هذه العاصمة ـ التي ارتبطت بهوية مصر، ورمزت لاستقلالها ـ أهملها الغزاة الإغريق.. وبنى الإسكندر الأكبر مدينة الإسكندرية سنة ٣٣٢ ق.م؛ لتكون العاصمة الأجنبية الاستعمارية لمصر المستعمرة!. ولقد سار الإغريق في هذا الأمر على درب الغزاة الهكسوس (١٦٧٥ ـ ١٥٨٠ ق.م) الذين اتخذوا لاستعمارهم عاصمة ترمز للاحتلال والاغتصاب ـ هي مدينة «أورايس» ـ وأهملوا العاصمة الوطنية لمصر والمصريين.

● والحضارة المصرية القديمة، ذات الطابع الشرقي، التي جمعت ما بين الدين والدنيا، وزاوجت بين العلوم النظرية والعملية، وآخت بين تمدن الواقع وتهذيب النفس، وقدست العمل اليدوي والذهني جميعًا، وعرفت «دين ـ الحكمة» و«الحكمة ـ المتدينة» منذ نبوة إدريس ـ عليه السلام ـ في فجر الإنسانية؛ هذه الحضارة قهرتها وطوت صفحتها الحضارة الإغريقية، في صورتها الهيلينية، تلك التي افتقدت ذلك التوازن الذي تميزت به الحضارة المصرية الشرقية.

● واللغة المصرية، تلك التي ارتفعت عن أن تكون مجرد أداة تعبير وتخاطب، وذاكرة الأمة، والحافظة لتراثها الأغنى، ارتفعت إلى حيث تقدّست ـ في إحدى صورها ـ عندما ارتبطت بالدين وكهنته وعلمائه. هذه اللغة المصرية زاحمتها اللغة اليونانية الغازية فطردتها من الساحة، حتى غدت عملة ليس لها رواج، فطويت صفحة أبجديتها الخاصة لحساب الأبجدية اليونانية، واضطر

openkandil.com

«الكتبة المصريون، منذ حكم الملوك البطالمة الإغريق؛ إلى استعمال الحروف اليونانية لكتابة لغتهم المصرية ولم يبق من حروف اللغة المصرية إلا سبعة أحرف لم يجدوا لها نظيرًا في الأحرف اليونانية» بل وتجاوزت الهزيمة ميدان الحروف إلى ميادين القواعد والكلمات والمصطلحات!»[1].

● والدين، الذي هو أعز ما يُطلب، وأغلى ما يُمْلَك، وأعظم نعم الله على الإنسان والذي ارتبط، في مصر، بفجر الإنسانية، وعراقة الحضارة ـ منذ عصر آدم عليه السلام، في رسالة إدريس عليه السلام ـ هذا الدين، الذي استمرت إشعاعات وومضات التوحيد فيه مضيئة ومتواصلة، تغالب غبش الوثنية وعدوان الشرك على مر تاريخ المصريين، والذي جعل المصريين، بقيادة «جماعة العارفين» من أسبق الشعوب إلى احتضان النصرانية في صورتها النقية التوحيدية. هذا الدين قد تعرض إلى القهر البيزنطي الذي سالت فيه الدماء أنهارًا، حدث ذلك عندما كان الرومان المستعمرون لمصر وثنيين، حتى لقد أصبح هذا القهر الوثني للنصرانية المصرية «إبادة» قادها الإمبراطور الروماني «دقلديانوس» (٢٨٤ ـ ٣٥٠م)، الذي أرخ المصريون بعهده عندما أطلقوا عليه «عصر الشهداء»!.

بل إن هذا القهر الديني، الذي مارسه البيزنطيون ضد النصرانية المصرية، لم يتوقف باعتناقهم للنصرانية ـ التي يتدين بها المصريون ـ فلقد طوعوا النصرانية لحضارتهم الإغريقية فاختلفت «نصرانية بولس» عن «نصرانية المسيح»!. وبعبارة إمام المعتزلة قاضي القضاء عبد الجبار بن أحمد الهمداني (٤١٥هـ ـ ١٠٢٤): «فإن النصرانية عندما دخلت روما لم تتنصّر روما، ولكن النصرانية هي التي تروَّمت»!.

فاستمر اضطهاد كنائس روما والمجامع البيزنطية ـ التي استبدلت التثليث بالتوحيد النصراني ـ استمر اضطهادها للنصرانية المصرية الموحدة، حتى اضطر المصريون إلى دفن أناجيل التوحيد ـ داخل «زلعة» ـ في مقابرهم «بنجع حمادي»!.

وحتى بعد أن قبلت الكنيسة المصرية وتبنت التثليث ـ الذي فرضه قانون الإيمان البيزنطي على كل الكنائس، منذ مجمع

(١) د. أحمد عثمان. مجلة (الهلال) عدد يونيه سنة ١٩٩٥

obeikandl.com

القسطنطينية سنة ٣٨١م ـ ظلت المقاومة المصرية لمذهب بيزنطة ملحوظة، تثير حقد البيزنطيين؛ فلقد ذهبت الكنيسة المصرية مذهبًا متميزًا في طبيعة المسيح، وجعلت التراث المصري القديم ـ في قصة إيزيس وحورس وأوزوريس ـ منطلقًا لتميزها في التثليث، واتخذت من «مفتاح الحياة» ـ المصري القديم ـ رمزًا يشبه الصليب، لكنه ليس هو في صورته البيزنطية! وبنت كنائسها وفق المعمار الفرعوني، لا البيزنطي. ووظفت هذا التمايز في النسق القومي المتميز والمقاوم للقهر الحضاري والقومي والديني الذي يمارسه البيزنطيون إزاء المصريين. الأمر الذي أدام الاضطهاد البيزنطي لمصر والمصريين في ظل «الجامع النصراني» كما كان حاله في «ظل التمايز الوثني ـ النصراني»!.. فسار الإمبراطور الروماني «جستنيان الأول» (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) على درب «دقلديانوس»، فقتل ٢٠٠,٠٠٠ قبطيًّا في الإسكندرية وحدها، ومن نجا من القتل هرب إلى الصحراء **حتى لقد انسحبت النصرانية المصرية من الحياة المدنية إلى المغارات والكهوف في مفازات الصحاري المصرية، مخلفة حتى كنائسها التي اغتصبها البيزنطيون!. الأمر الذي جعل مصر ـ الوطن والدولة والسيادة واللغة والدين والحضارة ـ عندما ظهر الإسلام (سنة ٦١٠م) «فراغًا حضاريًّا» بل «مواتًا حضاريًّا» ـ إذا جاز التعبير ـ قد قهر الرومان فيها أغلب سمات وقسمات «الانتماء» التي ميزت المصريين عبر تاريخهم العريق فكان هذا «الفراغ الحضاري» هو العامل الأول والسر الأعظم وراء انخراط مصر في الدولة الإسلامية، ثم في الدين الإسلامي واللغة العربية، والحضارة الإسلامية على نحو من العمق والشمول نادر الحدوث في غيرها من الأقطار التي فتحها الإسلام.**

فلم تقف مصر الإسلامية عند حدود الانتماء للإسلام كدين ودولة، وإنما تبوأت مكانتها الريادية، حتى لكأنها هي صاحبة هذا الدين، والأمينة عليه، والحارسة له فكانت دولتها هي الحامية لدولة الإسلام وكانت عربيتها ـ حتى في لهجتها العامية ـ الأقرب إلى لغة

obeikandl.com

القرآن، وكان اعتدالها في التدين هو الأقرب إلى وسطية الإسلام وكان إبداعها المتميز في مختلف العلوم الإسلامية، الشرعية منها والمدنية، آية على أنها قد «عاشت» الإسلام، واتخذته «رسالتها»، دينًا ودولة، ولغة وثقافة، وعلمًا وحضارة، وقومية وعزة، بكل ما يعنيه ذلك في سائر ميادين العلم والعمل والإبداع والانتماء. لقد جاءها الإسلام وهي «فراغ وموات حضاري»، فملأ الإسلام هذا الفراغ وأحيى هذا الموات.

وبذلك ولذلك استعادت مصر الإسلامية «عافيتها الحضارية»، عندما دخلت في الإسلام، الذي هو تمام الدين الإلهي الواحد، الذي عرفته وانتمت إليه منذ فجر الإنسانية، عندما استجابت إلى دعوة نبي الله ورسوله إدريس ـ عليه السلام ـ.

لقد وجدت في شريعة محمد ﷺ كمال واكتمال توحيد إدريس ـ ومن سار على دربه من أنبيائها وحكمائها ـ ووجدت في دولة الإسلام التحرير من قهر الرومان البيزنطيين.

obeikandl.com

الفتح التحريري لمصر بالإسلام

ظهر الإسلام (سنة ٦١٠) والشرق واقع في قبضة الاستعمار والهيمنة اللتين مارستهما قوى نظام عالم ذلك التاريخ: الفرس الساسانيون، والروم البيزنطيون.

● فالفرس فرضوا سلطانهم وهيمنتهم على مشرق البلاد العربية، العراق والخليج، حتى لقد بنوا «إيوانهم» في «المدائن» العربية، واستلحقوا العرب المناذرة أتباعًا ووقودًا في صراعهم الطويل مع الروم البيزنطيين.

● والروم البيزنطيون ورثوا استعمار الشام ومصر وشمالي إفريقيا، منذ غزوة الإسكندر الأكبر أي قبل نحو من ألف عام واستلحقوا عرب الشام ـ الغساسنة ـ أتباعًا ووقودًا في حروبهم مع الفرس بل وأوعزوا إلى الحبشة، التي احتلت اليمن، لتزيل استقلال وسط شبه الجزيرة العربية، وتهدم الكعبة والبيت العتيق ـ الذي ظل وحيدًا فريدًا «حرًا.. عتيقًا» في شرق ذلك التاريخ!.

لكن إرادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد شاءت أن يكون ظهور الإسلام الدين تحولًا حضاريًّا، يزيح هيمنة الفرس والروم عن الشرق، ويحرر شعوبه المستعبدة، ويغير مجرى التاريخ.

● ففي ذات العام الذي وُلد فيه رسول الإسلام ـ محمد بن عبد الله ﷺ (سنة ٥٧١) ـ ينهزم الأحباش وقائدهم أبرهة في غزوة الفيل ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ (الفيل: ١ـ ٥).. فبدأ الإعجاز الإلهي مقدمات التحولات التي ستغير قيادة الحضارة ومجرى التاريخ.

● وبعد هزيمة غزوة الفيل، وهلاك أبرهة الحبشي، انتفضت اليمن فتحررت، بقيادة سيف بن ذي يزن (٥١٦ ـ ٥٧٤م) لتعود الصلات والتجارات بين العرب ـ في شمال الجزيرة ووسطها وجنوبها ـ ولتنعقد أواصر التحالف والتضامن بين حكومة مكة ـ بقيادة عبد المطلب بن هاشم (٥٠٠ ـ ٥٧٩ م) ـ وبين حكومة الاستقلال في اليمن.

Obeikandl.com

● وفي ذات العام الذي انبثق فيه نور الوحي بكتاب الإسلام القرآن الكريم (٦١٠م)، يحدث أول انتصار للعرب على الفرس في تاريخ هذا الصراع، في «يوم ذي قار».

● فلما قامت للإسلام دولة، بالهجرة من مكة إلى المدينة (سنة ١ هـ ـ ٦٢٢م)، واضطرت قوى الشرك العربي، في صلح الحديبية (سنة ٦هـ ـ ٦٢٨م) إلى الاعتراف بأمة الإسلام ودولته، ودانت القبائل العربية بالولاء للدين الجديد والدولة الفتية؛ توجهت سياسة الإسلام إلى الدائرة الخارجية، بالدعوة أولًا إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، فاتحة بذلك طريق تحرير الشرق من استعباد الفرس والروم؛ فخرجت رسل رسول الله ﷺ (سنة ٧ هـ ـ ٦٢٨م) بكتبه ورسائله إلى كسرى فارس، وقيصر الروم، ونجاشي الحبشة، ومقوقس مصر، وإلى رؤساء وأقيال وأمراء القبائل والعشائر والولايات في الأطراف.

ويلفت النظر ذلك المغزى ذي الدلالة الكبرى في تعامل رسول الله ﷺ مع مصر، منذ اللحظة الأولى التي أرسل فيها رسوله حاطب بن أبي بلتعة (٣٥ ق.هـ ـ ٣٠ هـ ـ ٥٧٦ ـ ٦٥٠م) بكتابه إلى مصر؛ **فالإسلام لم يعترف بأن مصر هي شأن من شئون الروم البيزنطيين ـ رغم خضوعها لاستعمارهم منذ ما يقرب من ألف عام، فكما أرسل الرسول ﷺ في شأن الروم، كتابه إلى «هرقل» (٦١٠ ـ ٦٤١م) ـ وحمله الصحابي دحية الكلبي (٤٥ هـ ـ ٦٦٥م) ـ؛ تحدث الرسول إلى المصريين في شأنهم، ولم يعتبرهم شأنًا روميًّا بيزنطيًّا؛ فأرسل رسوله حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس، «عظيم القبط» ـ والذي كان يقيم في «منفيس»، العاصمة التاريخية والوطنية للمصريين. ولم يذهب حاطب، في شأن مصر، إلى العاصمة البيزنطية للاستعمار الروماني بمصر ـ الإسكندرية ـ ولا إلى «سيرس»، بطرك الروم.**

ويلفت النظر إلى هذه الحقيقة التاريخية، ذات المغزى التحرري الهام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) عندما يقول: «إن النظرية القائلة بأن «المقوقس» هو «سيرس» بطريق الإسكندرية، نظرية خاطئة. إن المقوقس قبطي، وهو حاكم منفيس..»[1].

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ ١ ص٨٣٣ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

obeikandl.com

فمنذ اللحظة الأولى، رفضت السياسة الخارجية للدولة الإسلامية الاعتراف بالأمر الواقع، الذي تمثل في هيمنة قطبي نظام عالم ذلك التاريخ ـ الفرس والروم ـ على الشرق والشرقيين.

ولم يكن خطاب الرسول ﷺ في شأن مصر والمصريين، مع «المقوقس» عظيم القبط، وفي العاصمة الوطنية لمصر ـ وليس مع «هرقل» في «القسطنطينية»، ولا مع بطرك الروم في «الإسكندرية» ـ لم يكن ذلك الموقف في السياسة الخارجية الإسلامية استثناء، وإنما كان موقفًا عامًّا، رافضًا الاعتراف باستعمار الفرس والروم للشرق والشرقيين؛ فكانت رسل رسول الله ﷺ يحملون كتبه إلى الولاة والقادة العرب ـ من الغساسنة والمناذرة ـ الخاضعين لسيطرة الروم والفرس حتى ذلك التاريخ.. فإلى ملك «البلقاء» بالشام الحارث بن أبي شمر الغساني، ذهب شجاع بن وهب الأسدي، كما ذهب سليط بن عميرة إلى العلاء بن الحضرمي، ملك البحرين[1]. وإلى غيرهم من القادة الوطنيين؛ **فتوجه الخطاب الإسلامي في الشئون الشرقية إلى الشعوب المستعمرة وقياداتها الوطنية، وليس إلى المستعمرين من الفرس والروم.**

(١) رفاعة الطهطاوي (الأعمال الكاملة) جـ٣ ص٥٦٣، ٥٦٤. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.

***

ذهب حاطب بن أبي بلتعة إلى مصر الشعب القبطي المقهور دينيًّا وقوميًّا ولغويًّا وثقافيًّا وسياسيًّا وحضاريًّا، حاملًا رسالة رسول الإسلام إلى «المقوقس» عظيم القبط، طالبًا إليه الدخول في الإسلام، لا باعتبار الإسلام ناسخًا لنصرانية عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ وإنما باعتباره الشريعة المكملة لدين الله الواحد، منذ آدم إلى محمد بن عبد الله، فهي دعوة للمصريين كي يكملوا، بالإسلام، الدين الذي عرفوه منذ نبي الله إدريس، عليه السلام.

ولقد شهد الحوار الذي دار بين المقوقس وبين حاطب على هذا الأفق الرفيع والواسع والعميق في فهم صحابة رسول الله ﷺ لمكانة الإسلام ومقامه من حقيقة تمام الدين واكتمال رسالات السماء إلى

obeikandl.com

الإنسان ﴿.. ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ..﴾ (المائدة: ٣) ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ولقد دار الحوار بين «المقوقس» وبين الصحابي حاطب بن أبي بلتعة، على النحو الذي يكشف كيف صنعت مدرسة النبوة الإسلامية من البدو الأميين علماء وفلاسفة في الدين والتاريخ!.

ولقد بدأ المقوقس هذا الحوار بالتحدي وبالتساؤل الاستنكاري، المتسائل عن صدق نبوة محمد وسلطان نبوته؛ فقال لحاطب:

«ـ ما منعه ـ (أي الرسول) ـ إن كان نبيًّا ـ أن يدعو عليَّ فيُسَلَّط عليَّ؟!.

(فكان جواب حاطب): ـ ما منع عيسى ابن مريم أن يدعوَ على من أَبَى عليه أن يُفْعَلَ به ويُفْعَل!.

.. (فوجم المقوقس ساعة ـ أي فترة ـ ثم استعاد إجابة حاطب؛ فأعادها عليه حاطب. فسكت المقوقس).

وهنا استأنف حاطب الحوار، فقال للمقوقس:

ـ إنه قد كان قبلك رجل ـ (يشير إلى فرعون موسى) ـ زعم أنه الرب الأعلى، فانتقم الله به ـ (أي من الذين استخفّهم فأطاعوه)ـ، ثم انتقم منه، فاعْتبر بغيرك، ولا يُعْتَبَر بك.

وإن لك دينًا ـ (أي النصرانية) ـ لن تَدَعَهُ إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافي الله به فَقْدَ ما سواه. وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد. وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به!».

وبعد هذا الخطاب، الذي بلغ قمة العمق في الوعي بالتاريخ، وفي فلسفة وحدة الدين الإلهي، الذي اكتمل بالإسلام. قرأ حاطب بن أبي بلتعة كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس:

obeikandl.com

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المقوقس، عظيم القبط. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام. فأَسْلِم تَسْلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن تولَّيْتَ فعليك إثم القبط ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ (آل عمران: ٦٤)[1].

فمنذ ذلك التاريخ (سنة ٧هـ سنة ٦٢٨) بدأ الإسلام إفراد وتمييز شعوب الشرق بالخطاب عن قوى الهيمنة والاستعمار ـ الفرس والروم ـ إعلانًا صريحًا عن نزوع الإسلام إلى تحرير هذه الشعوب من ذلك الاستعمار.

ولذلك فلم يكن غريبًا ذلك الاستقبال الحسن الذي لقيه حاطب بن أبي بلتعة لدى عظيم القبط «المقوقس»، في العاصمة الوطنية لمصر «منفيس». وعندما قفل عائدًا إلى المدينة، بعث معه المقوقس «بهدايا مصرية» إلى رسول الله، ﷺ، جاريتان من كرام بنات مصر: «مارية» وأختها «سيرين» وثياب مصرية، من صناعة المصريين وعسل من مدينة «بنها» وراحلتان ـ بغلة وحمار ـ.

وكما كان لرسالة الرسول ﷺ هذا القبول الحسن عند المقوقس؛ فلقد كان لهذه الهدايا المصرية قبولاً حسنًا ومكانة متميزة عند رسول الله؛ «فمارية»، قد شرفها بأن أصبحت أم ولده إبراهيم، الذي أشار اسمه إلى المصاهرة القديمة بين مصر وأبي الأنبياء الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ تلك المصاهرة التي أثمرت أمة العرب العدنانيين. وها هو النبي العربي، المجدد لملة إبراهيم والمحيي ـ في السعي بين الصفا والمروة ـ لمناسك هاجر المصرية، يجدد العلاقة بمصر فيصاهر المصريين، لتجتمع لمصر مع العرب الذمة والصهر والنسب جميعًا. أما «سيرين» فلقد أصبحت أم ولد شاعر الإسلام، المؤيد بروح القدس، حسان بن ثابت ـ أم ولده عبدالرحمن ـ. وتتحدث المأثورات النبوية عن دعاء الرسول ﷺ بالبركة لهذا العسل الذي أهدته إليه مصر وعن مكانة الراحلتين ـ البغلة «دُلْدُل»، والحمار

(١) ابن عبد الحكم (فتوح مصر وأخبارها) ص٤٦. طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م. و(مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) ص٧٢، ٧٣. تحقيق د. محمد حميد الله. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

obeikandl.com

«يعفور» ـ لديه ﷺ، وكيف كانا «أحب دوابه إليه» أما الثياب التي أهدتها إليه مصر، فكان يتزين بها، ثم أوصى أن يُكَفَّن في بعضها عندما يلقى الله. فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قلنا: يا رسول الله، فيم نكفّنك؟ قال: «في ثيابي هذه، في ثياب مصر»[1].

وهكذا دار الزمن دورته، فجدد الاقتران بين مصر وبين خاتم الأنبياء ذلك الاقتران الذي سبق وحدث بينها وبين أبي الأنبياء، إبراهيم الخليل، عليهم السلام.

***

وإذا كان الاصطفاء والتكريم مألوفًا في الناس وفي الأوقات والأزمنة؛ فإنه وارد أيضًا في الأمكنة والبلاد والأقطار وهذا ما التفت إليه أعلام المؤرخين الذين كتبوا عن «فضائل مصر»؛ فلقد تتبعوا احتفاء القرآن الكريم بها. عندما ورد ذكرها فيه في نحو من خمسة وعشرين موضعًا، «منها ما هو بصريح اللفظ، ومنها ما دلت عليه القرائن والتفاسير فأما صريح اللفظ، فمنه قوله تعالى:

١ـ ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾ (البقرة: ٦١).

٢ـ وقوله ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ﴾، يخبر عن فرعون: (الزخرف: ٥١).

٣ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّـَٔا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾ (يونس: ٨٧).

٤ـ وقوله ـ عز وجل ـ مخبرًا عن نبيه يوسف، عليه السلام: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾ (يوسف: ٩٩).

٥، ٦ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ (يوسف: ٢١).

وأما ما دلت عليه القرائن، فمنه قوله عز وجل:

٧ـ ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾ (يونس: ٩٣).

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٥٢.

obeikandl.com

٨ـ وقوله عز وجل: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ (المؤمنون: ٥٠).

قال ابن عباس (٣ ق.هـ ٦٨هـ ٦١٩ ـ ٦٨٧م) وسعيد بن المسيب (١٣ ـ ٩٤هـ ٦٣٤ ـ ٧١٣م) ووهب بن مُنَبّه (٣٤ ـ ١١٤هـ ٦٥٤ ـ ٧٣٢م) وغيرهم: هي مصر.

٩ـ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ﴾ (الشعراء: ٥٧ ـ ٥٨) أي أخرجنا بني إسرائيل من مصر.

١٠ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ﴾(الأعراف: ١٣٧). يعني مصر.

١١ـ وقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ (الدخان: ٢٥ ـ ٢٨).

١٢ـ وقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ (القصص: ٥ ـ ٦).

١٣ـ وقوله ـ عز وجل ـ مخبرًا عن نبيه موسى ، عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ (المائدة: ٢١) أي لا ترتدوا إلى مصر.

١٤ـ وقوله ـ عز وجل ـ مخبرًا عن فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (غافر: ٢٩).

١٥ـ وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ (الأعراف: ١٣٧).

Opelkanal.com

١٦ـ وقوله ـ تعالى ـ مخبرًا عن فرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾ (الأعراف: ١٢٧) يعني أرض مصر.

١٧ـ وقوله ـ تعالى ـ مخبرًا عن نبيه يوسف، عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ (يوسف: ٥٥).

١٨ـ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ﴾ (يوسف: ٥٦).

١٩ـ وقوله تعالى، مخبرًا عن بني إسرائيل: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (يونس: ٨٨).

٢٠ـ وقوله تعالى، مخبرًا عن نبيه موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ (الأعراف: ١٢٩).

٢١ـ وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ (غافر:٢٦).

٢٢ـ وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ (القصص: ٢٠).

٢٣ـ وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾(القصص:٤).

٢٤ـ وقوله ـ تعالى ـ مخبرًا عن أكبر أبناء يعقوب عليه السلام: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ (يوسف:٨٠) يعني مصر.

٢٥ـ وقوله تعالى:﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (القصص:١٩)[1].

هكذا شرف الله ـ سبحانه وتعالى ـ مصر الكنانة عندما ذكرها في قرآنه الكريم في خمسة وعشرين موضعًا. وعلى هذا الدرب جاء فضلها في سنة رسول الله ﷺ بتلك المأثورات النبوية التي جمعها علماء التاريخ.

(١) ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة) جـ١ ص٢٧، ٢٨. طبعة دار الكتب المصرية.

obeikandi.com

لقد تنبأ رسول الله ﷺ بفتح الإسلام لمصر وبدورها الرائد والمتميز ـ كدرة في جبين دار الإسلام ـ في الجهاد لنصرة الإسلام وأمته وحضارته؛ فأوصى، لذلك، بأهلها، وقال: «إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا»(١).

وعن مسلم بن يسار، أن رسول الله ﷺ قال: «استوصوا بالقبط خيرًا، فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم».

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن، أن رسول الله ﷺ قال: «الله الله في قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدة وأعوانًا في سبيل الله إنهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله تعالى».

وعنه ﷺ أنه قال:

«إذا أفتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض».

فقال له أبو بكر الصديق: ولم ذلك يا رسول الله؟

فقال: «لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة ما كادهم أحد إلا كفاهم الله مؤنته»(٢).

وعن أبي ذر الغفاري، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنكم ستفتحون مصر ـ وهي أرض يُسَمَّى فيها القيراط ـ فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحمًا» (٣).

هكذا توجه الإسلام إلى أهل مصر بالخطاب المستقل، إعلانًا عن عزم دولته على تحريرها من القهر السياسي والديني والحضاري الذي أوقعه بها الإغريق والرومان. وهكذا كرمها القرآن الكريم، ونبي الإسلام، والسنة النبوية الشريفة، عندما بوأتها هذه المكانة المتميزة والعالية في مصادر الإسلام.

***

وإذا كانت هذه هي مكانة مصر في الرؤية الإسلامية، وهذه هي قسمة البعد التحريري في السياسة الإسلامية نحو الشعب القبطي ـ المصري ـ؛ فلقد كان الروم البيزنطيون يرون في مصر الحصن الحافظ لاستعمارهم، والذي إذا سقط انحسر سلطانهم الاستعماري عن الشرق كله، ذلك السلطان الذي دام نحوًا من عشرة قرون (٣٣٢ ق.م ٦٤٢م) ففي المواجهة التي احتدمت بين الروم، بقيادة

(١) رواه الطبراني في الكبير.
(٢) (فتوح مصر وأخبارها) ص٣، ٤. و(النجوم الزاهرة) جـ١ ص٢٩.
(٣) رواه مسلم والإمام أحمد.

obeikandl.com

«هرقل» (٦١٠ ـ ٦٤١م)، وبين دولة الخلافة الراشدة، على عهد عمر بن الخطاب (١٣ـ ٢٣هـ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م)، شحن الرومان مصر بالجيوش والعدة والعتاد، وخاصة بعد أن انحسر سلطانهم وزالت دولتهم عن بلاد الشام حتى لقد عبّر «هرقل» عن هذا الموقف صراحة عندما قال: «**لئن ظهرت العرب على الإسكندرية فإن في ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم؛ لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية، وأعياد الروم بالإسكندرية..**»[١].

وحتى نعرف حدة الصراع، وشراسة القتال، وطول المحاصرات، وقوة التحصينات، وشدة المعاناة التي اكتنفت الفتح الإسلامي لمصر ـ مع ملاحظة وقوف الشعب المصري مع جيش عمرو بن العاص، وتركز الصراع والقتال ضد حاميات الروم وحصونها ـ حتى نعرف مبلغ ذلك، يكفي أن نتذكر أن الفتح الإسلامي للعراق والخليج وفارس، وأيضًا لكل أنحاء الشام، بما في ذلك المعارك الكبرى في «القادسية» و«أجنادين» و«اليرموك» تمت كلها في عام واحد (١٥ هـ ٦٣٦م)، بينما استغرق فتح مصر وحدها نحوًا من أربع سنوات! بل إن فتح مدينة الإسكندرية وحدها قد استلزم حصارًا فرضه المسلمون عليها دام أربعة عشر شهرًا، منها خمسة أشهر في حياة هرقل وتسعة بعد وفاته فلقد كانت مصر درة الإمبراطورية البيزنطية، ومقر الجيوش الرومانية الحارسة لهيمنة بيزنطة على الشرق ـ من الشام وحتى شمالي إفريقيا.

ويبدو أن هذه الإمكانات العسكرية التي ركزها الرومان في مصر، كانت هي سبب التردد الذي حدث لفكر وموقف عمر بن الخطاب في اتخاذ قرار فتحها عندما اقترحه عليه وحسّنه له وأغراه به عمرو بن العاص (٥٠ ق. هـ ٤٣ هـ ٥٧٤ ـ ٦٦٤م) في سنة (١٨ هـ ٦٣٩م)، عندما التقيا في الشام. فلقد استخار عمر في ذلك واستشار، واستمرت شوراه حتى بعد أن تحرك عمرو بن العاص بجيشه متوجهًا نحو مصر. وكان مما قاله عثمان بن عفان لعمر، في هذه المشاورات: «يا أمير المؤمنين، إن عمرًا لجريء، وفيه إقدام، وحب للإمارة، فأخشى أن يخرج في غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا..»[٢] .. فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بالرجوع عن خطة الفتح إذا

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٦٨.
(٢) المصدر السابق. ص ٥٧، ٥٨.

obeikandl.com

لم يكن قد دخل مصر، وبالمضي إلى الفتح إذا كان قد دخلها وجاء في كتابه: «أما بعد فإنك سرت إلى مصر ومن معك، **وبها جموع الروم، وإنما معك نفر يسير** فإن لم تكن قد بلغت مصر فارجع وإن أدركك كتابي وقد دخلتها فامض، **واعلم أني مُمِدُّك**..»[1] .. فكان فتح عمرو بن العاص لكتاب أمير المؤمنين بعد تجاوزه لـ«رفح» وقبل دخول «العريش». ذلك أن مشيئة الله كانت قد نفذت، وحان الحين كي يجسدها على الأرض وفي ميادين الفتوحات التحريرية، أولئك الذين استخلفهم الله للانتقال بالإنسانية إلى طور جديد.

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (الحج: ٤١).

***

وإذا كانت وقائع هذا الفتح المبين، ومراحله وتواريخه قد اختلفت في بعضها بعض روايات المؤرخين؛ فإن التحقيق لهذه الروايات والمقارنة بينها يحكي لنا حقائق سير خطوات هذا الحدث التاريخي العظيم.

● كان عمرو بن العاص قد أسهم إسهامًا متميزًا في قيادة فتوحات الشام وهو الذي تولى قيادة المعركة في «أجنادين»، عندما كانت قيادة جيش الروم لداهيتهم «أرطبون» ـ «الذي كان أدهى الروم وأبعدها غورًا، وأنكاها فعلاً» ـ كما يقول الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ ٨٣٩ ـ ٩٢٣م) ـ ولقد قدم المسلمون عمرو بن العاص باعتباره الكفء لأرطبون الروم. وقال عمر بن الخطاب: «لقد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظر عمّ تنفرج»! ولقد انفرجت المعركة عن انتصار المسلمين بقيادة عمرو بن العاص على أرطبون الروم![2] .

● وحدث في سنة (١٨ هـ ٦٣٩م) طاعون بأرض الشام ـ بضيعة «عمواس»، على ستة أميال من القدس ـ مات فيه كثيرون، منهم قائد الجيش الإسلامي الفاتح للشام، أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح (٤٠ ق.هـ ـ ١٨ هـ ٥٨٤ ـ ٦٣٩م) ونائبه معاذ بن جبل (٢٠ ق.هـ ١٨ هـ ٦٠٣ ـ ٦٣٩م) فأصبحت قيادة جيش المسلمين

(١) المصدر السابق. ص ٥٧.
(٢) الطبري (تاريخ الرسل والملوك) جـ١ ص٦٠٥ ـ ٦٠٧. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة دار المعارف. القاهرة.

obeikandl.com

في الشام لعمرو بن العاص وسار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من المدينة إلى الشام، ونزل بـ«الجابية» ـ وهي قرية من أعمال دمشق ـ وقسم مواريث موتى الطاعون وفي لقائه مع عمرو بن العاص، شاوره عمرو في فتح مصر، وحسنه له، وأغراه به فوافق عمر، على أن تمتد المشورة إلى ما بعد عودته للمدينة ـ وفيها كبار الصحابة ـ وعلى أن يظل القرار النهائي معلقًا بنتائج الشورى وبدخول الجيش الفاتح إلى الديار المصرية.

وعاد عمر إلى المدينة في ذي القعدة سنة ١٨ هـ ديسمبر سنة ٦٣٩م في الوقت الذي سار فيه عمرو بن العاص على رأس جيش الفتح ـ المكون من ٤,٠٠٠ (أربعة آلاف) مقاتل قاصدًا فتح مصر. فلما وطئت أقدام الجيش الإسلامي أرض مصر، أدركهم رسول أمير المؤمنين، بكتابه الذي يدعوهم إلى الرجوع إن لم يكونوا قد دخلوا أرضها وكانت قراءة الكتاب وهم على أرض مصر، في قرية بين «رفح» و«العريش» فمضوا إلى فتحهم على بركة الله.

● وفي مدينة «العريش» حل أول عيد للأضحى على المسلمين في أرض مصر، فصلى عمرو بن العاص وجنوده أول صلاة للعيد على أرض الكنانة، وضحى عن أصحابه بكبش، في ١٠ ذي الحجة سنة ١٨ هـ ١٣ ديسمبر سنة ٦٣٩م ـ أي قبل أربعة عشر قرنًا من التاريخ الذي نكتب فيه هذه الصفحات.

● وفي مدينة «الفرما» حدث أول قتال شديد بين الجيش الإسلامي وبين قوات الروم، وفي هذه المعركة دام القتال نحوًا من شهر![1].

● وبعد هزيمة الروم في «الفرما» انحرف الجيش الإسلامي عن الطريق الساحلي، متجهًا إلى الجنوب الغربي، وعند «بلبيس» وقعت ثانية وقائع القتال الشديد بينه وبين الرومان. ودامت هذه المعركة، هي الأخرى، نحوًا من شهر! انتصر فيه المسلمون على الرومان.

● وكان الاضطهاد الروماني لأقباط مصر قد ألجأ أسقف القبط ورأس الكنيسة المصرية «بنيامين» ـ أو «أبوميامين» (٣٩هـ ٦٥٩م) ـ إلى الهرب في الصحراء «**فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم: أنه لا تكون للروم دولة، وأن ملكهم**

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٥٨.

obeikandi.com

قد انقطع، ويأمرهم بتلقي عمرو بن العاص». حدث ذلك منذ بدايات معارك الفتح الإسلامي لمصر، حتى «يقال: إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا، يومئذ، لعمرو أعوانًا..»[1].

● وأدرك عمرو بن العاص ـ رغم انتصاره في «الفرما» و«بلبيس» ـ ومن خلال شراسة المقاومة، وطول مدة القتال ـ شهر في «الفرما» وشهر في «بلبيس» ـ اختلال التوازن بينه وبين الأعداء.. فجنوده ٤,٠٠٠ يواجهون ١٢٠,٠٠٠ يحتمون في الحصون والمدن والقلاع ووافر العدة والعتاد؛ فكتب إلى عمر بن الخطاب يطلب المدد الذي وعده به، فجاءه المدد، وهو محاصر «لحصن بابليون»، قرب العاصمة المصرية «منفيس» أمده أمير المؤمنين عمر بـ ٤,٠٠٠ مقاتل، وعلى رأس كل ألف منهم واحد من أبطال صحابة رسول الله ﷺ، قدّر عمر بن الخطاب أنه يزن ألفًا من المقاتلين؛ فأصبح عدد الجيش الفاتح ٨,٠٠٠ ووزنه ١٢,٠٠٠ من المقاتلين!. ومع هذا المدد جاء كتاب أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص، يقول له فيه: «إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف ـ الزبير بن العوام (٢٨ ق. هـ ـ ٣٦هـ ـ ٥٩٦ ـ ٦٥٦م) والمقداد بن عمرو بن الأسود (٣٧ ق.هـ ـ ٣٣ هـ ـ ٥٨٧ ـ ٦٥٣م) وعبادة ابن الصامت (٣٨ ق.هـ ـ ٣٤هـ ـ ٥٨٦ ـ ٦٥٤م) ومسلمة بن مخلد (١ ـ ٦٢هـ ـ ٦٢٢ ـ ٦٨٢م) ـ (وقيل: خارجة بن حذافة (٤٠ هـ ـ ٦٦٠م)..) ـ ولا يُغْلب اثنا عشر ألفًا من قِلَّة..»[2].

وبالثمانية آلاف، والصحابة الأربعة ـ الذين يعدلون أربعة آلاف ـ حاصر المسلمون «حصن بابليون» سبعة أشهر، حتى اقتحموه وافتتحوه عنوة وقتالًا في نهاية المطاف! وكان ذلك في يوم الجمعة ٢ محرم سنة ٢٠ هـ ٢٢ ديسمبر سنة ٦٤٠م. وبذلك أصبحت العاصمة الوطنية لأقباط مصر ـ «منفيس» ـ محررة من استعمار الروم البيزنطيين.

● وأثناء حصار المسلمين لـ «حصن بابليون» ـ الذي كان يقود الروم دفاعًا عنه، قائدهم «الأعيرج» ـ حدثت اتصالات ودارت مفاوضات بين «المقوقس»، عظيم القبط ووالي «منفيس»، وبين

(١) المصدر السابق. ص٥٨، ٥٩.
(٢) المصدر السابق. ص٦١.

obeikandl.com

رسل عمرو بن العاص. حدث ذلك في آخر شعبان سنة ١٩ هـ ٢٤ أغسطس سنة ٦٤٠م، عندما تحدث المقوقس إلى قيس بن سعد (٦٠هـ ٦٨م) مندوب عمرو بن العاص. وبعد هذه المحادثة، أرسل المقوقس رسلًا من عنده لاستطلاع حال المسلمين في معسكرهم «فلما جاءت رسل المقوقس إليه، قال لهم:

- كيف رأيتموهم؟

- قالوا: **رأينا قومًا. الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نَهْمَة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويتخشعون في صلاتهم.**

فقال ـ عند ذلك ـ المقوقس: والذي يُحْلَفُ به! لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إن أمكنهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم..»[1].

لقد تميّز موقف القبط ـ الذي عبر عنه المقوقس ـ وذلك تبعًا لتميز موقف أسقف القبط «أبو ميامين» ـ تميز موقف القبط عن موقف المستعمرين الروم؛ فسعى المقوقس إلى مصالحة الجيش الإسلامي الفاتح ودارت بينه وبين المسلمين مفاوضات ـ في «منفيس» ـ مثّل المسلمين فيها وفد قاده الصحابي عبادة بن الصامت. وكان المقوقس، وهو يحاور عباد بن الصامت ـ ولهذا دلالته ومغزاه ـ **يتحدث عن الروم بضمير الغائب**، فيقول لعبادة، محذرًا إياه من قوة الروم، والإمدادات الآتية إليهم ـ عبر البحر المتوسط ـ: «لقد توجّه إلينا لقتالكم من جَمْع الروم ما لا يُحْصَى عددُه وإننا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تطيقوهم، لضعفكم وقلتكم..»[2].

ولقد أفضت المفاوضات بين المقوقس، عظيم القبط ـ في «منفيس» ـ وبين رسل عمرو بن العاص، إلى صلح ناجز بين القبط ـ الذين تعاقد المقوقس باسمهم ـ وبين عمرو بن العاص، وإلى صلح آخر، غير ناجز، اقترحه المقوقس على الروم، وعلّق إمضاءه على موافقة هرقل، قيصر الروم.

(١) المصدر السابق: ص٦٥.
(٢) المصدر السابق: ص٦٦.

obeikandl.com

فأما صلح القبط ـ الناجز والنهائي ـ فلقد تم التعاقد عليه عندما اجتمعوا ـ عمرو بن العاص في نفر من المسلمين، والمقوقس في نفر من القبط ـ «واصطلحوا على أن يُفْرَض على جميع من بمصر، أعلاها وأسفلها، من القبط ديناران ديناران من بلغ الحُلُم منهم، ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحُلُم ولا النساء شيء. وأن لهم أرضهم وأموالهم، لا يُعْرَض لهم في شيء منها. فشُرط هذا على القبط خاصة»[1].

وبذلك تم التعاقد على الصلح بين الجيش الفاتح وبين الشعب المصري، وقيادته الوطنية وهو التعاقد الذي عبر عن الموقف العملي للشعب من الجيش الفاتح، وهو موقف الترحيب والدعم والتأييد، الذي أعلن عنه الأسقف «أبوميامين» منذ معركة «الفرما» في شبه جزيرة سيناء.

أما «مشروع» الصلح بين المسلمين والروم، والذي تطوع المقوقس، عظيم القبط، فتفاوض حوله مع عمرو بن العاص؛ فلقد كان مجرد «مشروع» اتفقا على تعليق إنجازه وإمضائه على موافقة هرقل، قيصر الروم. وفي هذا «المشروع»: «شَرَط المقوقس للروم أن «يُخَيروا، فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا ـ (الصلح الذي عقده القبط) ـ أقام على ذلك، لازمًا له، مفترضًا عليه ممن أقام بالإسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها، ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج، وعلى أن للمقوقس الخيار في الروم خاصة **حتى يكتب إلى ملك الروم يعلمه ما فعل، فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم، وإلا كانوا جميعًا على ما كانوا عليه**. وكتبوا بذلك ـ (الصلح) ـ كتابًا..»[2].

فلما كتب المقوقس إلى هرقل بخبر ونص هذا الصلح المقترح على الروم؛ رفضه هرقل «وكتب إلى المقوقس يُقَبِّح رأيه، ويُعَجِّزه ويرد عليه ما فعل، ويقول في كتابه ـ (إلى المقوقس) ـ: إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفًا، وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يُحصى، فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا دفع الجزية إلى العرب واختاروهم علينا، فإن عندك بمصر من الروم بالإسكندرية ومن

(١) المصدر السابق: ص٧٠.
(٢) المصدر السابق: ص ٧٠ ـ ٧٣.

obeikandl.com

معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة فناهضهم القتال، **ولا يكون لك رأي غير ذلك.**

● وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتابًا إلى جماعة الروم.

● فأخبر المقوقس عمرو بن العاص بجواب ملك الروم، وطلب منه إدخاله ومن معه في الصلح، كالقبط ـ (إي إدخال من مع المقوقس من الروم، الذين اختاروا الصلح، في هذا الصلح الذي تم مع القبط) ـ وقال لعمرو بن العاص: «**إنما سلطاني على نفسي ومن أطاعني، وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم، ولم يأت من قبَلهم نقض، وأنا متمّ لك على نفسي، والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاهدتهم، وأما الروم فأنا منهم بريء..**»[١].

هكذا تميز الموقف الإسلامي من القبط، الذين صالحوا وعاونوا وسالموا، عن الموقف من الروم، الذين اختاروا القتال.

وحتى القرى المصرية التي ساند أهلها الروم، وشاركوا في قتال الجيش الإسلامي ـ قرى «بَلْهيت» و«سُلْطَيْس» و«أم دنين» و«قرطَسَا» و«سَخا» و«الخيس» ـ في الطريق إلى الإسكندرية ـ حتى هذه القرى، عفا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن أهلها، وحرر أسراهم، وشملهم بالصلح الذي أبرمه الأقباط مع عمرو بن العاص[٢].

● وفي الطريق إلى الإسكندرية، كان الرومان قد زرعوا الحصون والاستحكامات وشحنوها بالجنود والعتاد؛ فدارت العديد من المعارك بين الجيش الإسلامي الفاتح وبين هذه الحصون والقلاع والحاميات الرومانية.

حدث ذلك في «أُمّ دُنين» بالقرب من العاصمة المصرية وحصن بابليون.

وفي «سُلْطَيْس» وهي من القرى المصرية القديمة حدث قتال شديد بين المسلمين والرومان.

وفي «قَرطَسا» وهي من قرى مصر القديمة.

وفي «الخَيس» وهي من كور وقرى الحوف الغربي.

(١) المصدر السابق: ص٧١، ٧٢.

(٢) المصدر السابق: ص٨٣، ٨٤.

obeikandl.com

وفي «سَخا» وهي من المدن المصرية القديمة بدلتا النيل.

وفي «بَلْهيت» ـ أو «بَلْهِيت».

وفي «كوم شريك» ـ قرب الإسكندرية ـ دام القتال ثلاثة أيام.

وفي «الكِرْيَوْن» ـ قرب الإسكندرية ـ استمر القتال بضعة عشر يومًا حتى لقد صلى المسلمون يومئذ صلاة الخوف؛ فانقسموا طائفتين، وصلى عمرو بن العاص بكل طائفة ركعة وسجدتين، بينما الطائفة الأخرى تخوض غمار القتال، وتؤمن صلاة المصلين!..[1]

كل هذا قد حدث، ومثله كثير ـ على طريق الجيش الفاتح ، أثناء سيره من حصن بابليون إلى الإسكندرية بينما حصون الروم وقلاعهم منتشرة في غير ذلك من الأقاليم والأنحاء، شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا.

لقد أدخل صلح المقوقس مع عمرو بن العاص مصر الشعب في إطار الدولة الإسلامية.

وفتحت هزيمة الرومان في حصن بابليون الطريق أمام الجيش الفاتح نحو الإسكندرية، التي هي المعركة الفاصلة بين المسلمين ـ ومعهم القبط ـ وبين المستعمرين الرومان.

(٢) المصدر السابق: ص٧٣، ٧٤.

obeikandl.com

فتح الإسكندرية

وبعد هزيمة الروم في «حصن بابليون» ـ يوم الجمعة ٢ محرم سنة ٢٠ هـ ٢٢ ديسمبر سنة ٦٤٠م ـ تحرك الجيش الإسلامي لحصار الإسكندرية، عاصمة الاستعمار الروماني في مصر، وفرض عليها الحصار ـ إلا من ناحية البحر ـ أربعة عشر شهرًا. وكما يروي التاريخ عن الإسكندرية وحصارها؛ فلقد «**تحصّن بها الروم، وكانت عليهم حصون مبنية لا ترُام، حصن دون حصن**. فنزل المسلمون ما بين «حلوة» إلى «قصر فارس» إلى ما وراء ذلك، **ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة..**»[1].

ورغم مناعة الحصون والمائة ألف رومي الذين اعتصموا في هذه الحصون والمدد الذي يأتيهم من البحر؛ استطاع المسلمون اقتحام الإسكندرية، وتقويض الاستعمار الذي بدأ مع فتح الإسكندر الأكبر، قبل نحو ألف عام (سنة ٣٣٢ ق.م)؛ فلقد فتح الله عليهم هذه المدينة الحصينة يوم الجمعة أول جمادى الثانية سنة ٢٠ هـ ١٨ مايو سنة ٦٤١م.

(١) المصدر السابق: ص٧٤.

ولقد كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه هو الذي حدد للجيش الفاتح تاريخ المعركة وتوقيت الفتوح، وشروط الانتصار. والمؤرخون يتحدثون عن ذلك، فيقولون: إنه «لما أبطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر، كتب إلى عمرو بن العاص: أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر. **إنكم تُقاتلون منذ سنتين**، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحبَّ عدوُّكم. وإن الله ـ تبارك وتعالى ـ لا ينصر قومًا إلا بصدق نيّاتهم.

وقد كنتُ وجّهتُ إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل، على ما كنتُ أعرف، إلا أن يكونوا غيَّرهم ما غيَّر غيرهم.

فإذا أتاك كتابي هذا، فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومر الناس جميعًا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، **وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تَنَزُّل الرحمة ووقت الإجابة، وليَعُجَّ الناسُ إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم**».

obeikandl.com

فلما أتى عمرو بن العاص كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، جمع الناس وقرأ عليهم الكتاب، ثم دعا أولئك النفر ـ (الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد) ـ فقدَمهم أمام الناس، **وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين، ثم يرغبوا إلى الله ـ عز وجل ـ ويسألوه النصر، ففعلوا، ففتح الله عليهم..**»[1].

هكذا فتحت الإسكندرية، وبفتحها دالت دولة الروم، وطويت صفحة استعمارهم للشرق، بعد أن دامت قرابة الألف عام. ذلك أن الإسكندرية كانت هي حصن الاستعمار البيزنطي، الذي قهر مصر في السياسة والدين والثقافة والحضارة، فجعل منها «فراغًا حضاريًّا» سعت إلى ملئه بحضارة الإسلام، تلك التي ورثت وأحيت كل المواريث الحضارية التي سبقت الإسلام والتي حرر فتحها الإسلامي القبط من الاضطهاد المأساوي الذي أنزله بهم الروم البيزنطيون.

لقد تحققت، بفتح الإسكندرية، نبوءة «هرقل» ـ قيصر الروم ـ تلك التي قال فيها: «**لئن ظهرت العرب على الإسكندرية، فإن في ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم؛ لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية**» وبعد فتحها تمت فتوحات سائر الأقاليم المصرية.

(١) المصدر السابق: ص٧٩.

فبعد أن أسس عمرو بن العاص مسجده ـ وهو أول مسجد بني في القارة الإفريقية ـ (سنة ٢١ هـ سنة ٦٤٢م) ـ واختط من حوله خطط أولى المدن الإسلامية في أفريقيا ـ **مدينة الفسطاط ـ التي جعلها امتدادًا وضاحية للعاصمة الوطنية المصرية التاريخية «ممفيس» ـ بل وسماها «مصر» ـ رمزًا لتعبير الفتح الإسلامي وعاصمتها عن تحرير مصر، وليس عن القهر الذي رمزت إليه العواصم الاستعمارية «أواريس» الهكسوس، و«إسكندرية» الإسكندر المقدوني ـ**؛ بعد ذلك قاد المقداد بن الأسود الجيش الذي فتح «دمياط» (سنة ٢١هـ ٦٤٢م).

وفي العام التالي (سنة ٢٢هـ ٦٤٢م) قاد عمرو بن العاص الجيش الذي فتح به «برقة ـ إنطابلوس»، وهي الحد الغربي للديار المصرية.

obeikandl.com

وبذلك تمت فتوحات الإسلام لمصر، تلك التي استغرقت من الحصار والقتال أربع سنوات. فلقد صلى المسلمون ـ وراء عمرو بن العاص ـ صلاة عيد الأضحى بالعريش في العاشر من ذي الحجة سنة ١٨هـ ـ ١٣ ديسمبر سنة ٦٣٩م وكان تمام الفتح ـ بقيادة عمرو ـ لـ«برقة ـ انطابلوس» سنة ٢٢هـ سنة ٦٤٢م وهي مدة غير مسبوقة، في طولها، بتاريخ الفتوحات الإسلامية؛ لبلد كان الروم قد علقوا عليه كل الآمال، وعلق عليه الإسلام والمسلمون الكثير والكثير من الآمال!.

ويكفي أن نعلم أن أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب، الذي أهمّه اتخاذ قرار فتح مصر أكثر مما حدث له مع قرارات الفتوحات الكبرى؛ قد استقبل بشارة فتح مصر، وسقوط قلاع الروم في الإسكندرية كما لم يستقبل بشارة فتح من الفتوح، على كثرة وعظمة ما شهد عهده من الفتوح.

ولقد كان حامل بشارة الفتح إلى المدينة واحدًا من أبطال الفتوحات الإسلامية، الصحابي معاوية بن حديج (٥٢ هـ ٦٧٢م) ـ والراوي عن رسول الله ﷺ، حديث: غُدْوَةٌ في سبيل الله أو رَوْحَة خير من الدنيا وما فيها»[1] ـ فوصل إلى مسجد المدينة ساعة الظهيرة، وظنًّا منه أن أمير المؤمنين قَائِل قيلولة الظهيرة، آثر الانتظار بالمسجد إلى صلاة العصر ـ وما درى أن عمر يحرّقه القلق والشوق إلى أخبار الفتح الذي أبطأ به الزمان ـ حتى لقد وجّه الجواري والغلمان لترقب القادمين من الأسفار، علّ أن يكون فيهم من يحمل من مصر الأخبار.

ولندع معاوية بن حديج يروي لنا كيف استقبل عمر بن الخطاب بشارة الفتح العظيم، الذي دخلت به مصر في دين الله، والذي كان عيد ميلاد إسلامها!. يقول معاوية:

«بعثني عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية؛ فقلت لعمرو:

ـ ألا تكتب له؟.

ـ فقال عمرو: وما أصنع بالكتاب؟! ألستَ رجلًا عربيًّا، تُبلغ الرسالة وما رأيتَ وما حضرتَ؟!

(١) رواه الإمام أحمد. وانظر: ابن الأثير (أسد الغابة في معرفة الصحابة) ـ ترجمة معاوية بن حديج ـ طبعة دار الشعب. القاهرة.

obeikandi.com

فقدمت المدينة في الظهيرة، فأنختُ راحلتي بباب المسجد، ثم دخلت المسجد. فبينا أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب، فرأتني شاحبًا، عليّ ثياب السفر، فأتتني فقالت:

– من أنت؟

– قال: فقلت: أنا معاوية بن حديج، رسول عمرو بن العاص.

فانصرفت عني ـ (إلى منزل عمر) ـ ثم أقبلت تشتد ـ (مسرعة) ـ أسمع حفيف إزارها على ساقيها، حتى دنت مني فقالت:

– قم، فأجب، أمير المؤمنين يدعوك.

فتبعتها، فلما دخلت، فإذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى، فقال:

– ما عندك؟

– فقلت: خير، يا أمير المؤمنين، فتح الله الإسكندرية!.

فخرج معي إلى المسجد، فقال للمؤذن:

– أذن في الناس: الصلاة جامعة.

فاجتمع الناس، ثم قال لي:

– قم، فأخبر أصحابك!

فقمتُ فأخبرتهم، ثم صلى، ودخل منزله، واستقبل القبلة فدعا بدعوات، ثم جلس، فقال:

– يا جارية، هل من طعام؟

فأتت بخبز وزيت، فقال:

– كُلْ.

فأكلتُ على حياء!

– ثم قال: يا جارية، هل من تمر؟

فأتت بتمر في طبق، فقال:

– كُلْ.

فأكلت على حياء!

– ثم قال: ماذا قُلْتَ، يا معاوية، حين أتيت المسجد؟

– قال: قلتُ: أمير المؤمنين قائل.

obeikandl.com

– قال: **بئس ما ظننتَ! لئن نمتُ النهار لأضيِّعَنّ الرعية، ولئن نمتُ الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية؟!**»[١].

هكذا استقبل عمر بن الخطاب، وعاصمة الدولة الإسلامية، بشارة الفتح العظيم، الذي دخلت به مصر في دين الإسلام فأذّن المؤذن: الصلاة جامعة. فلما اجتمع الناس، صلى الجميع وسجدوا جميعًا ـ في مسجد النبوة ـ شكرًا لله، سبحانه وتعالى الذي أدال دولة الروم، بعد أن أدال دولة الفرس، فتحررت شعوب الشرق من استبداد واستعباد وهيمنة «نظام» عالم ذلك التاريخ!.

أما الروم، فإنهم لم يجعلوا هزيمتهم في الإسكندرية ـ يوم الجمعة أول جمادى الثانية سنة ٢٠ هـ ـ ١٨ مايو سنة ٦٤١م ـ نهاية أحلامهم في استعمار مصر والشرق فنقضوا العهد الذي عاهدوه عقب الهزيمة، وتآمروا مع من بقي منهم بالإسكندرية، واقتحموا المدينة من البحر في سنة ٢٥ هـ سنة ٦٤٦م واحتلوها إلى أن عاد إليها عمرو بن العاص، فقاتلهم وهزمهم، وفتح الإسكندرية ـ الفتح الثاني ـ في تاريخ هذا الصراع.

ولقد كان هذا الغدر رومانيًّا خالصًا!. وبعبارة المؤرخين: «وأما المقوقس فبقي ثابتًا على صلحه، ولم يغدر»[٢].

بل ظلت القسطنطينية ـ عاصمة الدولة البيزنطية ـ تُجَيِّش الجيوش لاستعادة الشرق من الدولة الإسلامية حتى تاريخ الفتح العثماني لها (٨٥٧ هـ ـ ١٤٥٣م) بقيادة السلطان محمد الفاتح (٨٢٢ ـ ٨٨٦هـ ـ ١٤٢٩ ـ ١٤٨١م).

فمصر كانت، وظلت، في «النظام الغربي» بوابة استعمار الغرب للشرق، وضمانة بقاء هذا الاستعمار ولذات السبب كانت أهميتها في الفتوحات التحريرية التي غير بها الإسلام قيادة الحضارة، ومقاصدها، فغير بذلك مجرى التاريخ.

***

لقد دخل الجيش الإسلامي إلى مصر، فميز فيها بين «الأمة المقهورة» التي أمَّنها وحررها وأحياها والتحم بها وبين «الدولة القاهرة» التي حاربها وهزمها وطوى صفحة استعمارها لمصر وقهرها للمصريين.

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٨١.
(٢) محمد مختار باشا المصري (التوفيقات الإلهامية في مقارنة التاريخ) ـ توقيعات سنة ٢٥ هـ. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت سنة ١٩٨١م.

obeikandl.com

ولعل في تمايز هذا الموقف الإسلامي ـ إزاء «الأمة» و«الدولة» ـ السر في ذلك الخلاف الشهير بين المؤرخين الذين كتبوا عن الفتح الإسلامي لمصر خلافهم حول فتح مصر، وهل كان «عُنْوَة» ـ بالقتال؟ أم كان «صلحًا» ـ دونما قتال ـ ؟؟[1].

فمصر «الأمة.. والشعب» قد فتحت «صلحًا» وحتى قبل تعاقد المقوقس، عظيم القبط، مع عمرو بن العاص على هذا الصلح ومنذ أن عرف المصريون نبأ دخول عمرو بن العاص وجيش الإسلام إلى أرض سيناء؛ فالمصريون قد وقفوا يساندون الجيش الإسلامي الفاتح منذ معركة «الفرما» في شمالي سيناء ومنذ ذلك التاريخ، أيضًا، كان قرار وتوجيه بطرك مصر «أبو ميامين» ـ وهو منفي وهارب في الصحراء ـ.

أما «مصر» الدولة البيزنطية، فإنها هي التي «فتحت ـ بل وقُهِرَت ـ عنوة وقتالاً».. بل وقتالاً شرسًا، استغرق من الجيش الباسل، الذي ضم جمهرة من الأبطال، صحابة رسول الله ﷺ ورضي عنهم وأرضاهم، أربع سنوات؛ فكان أطول «فتوح العنْوَة» في تاريخ فتوحات الإسلام!.

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٨٤ ـ ٩٠.

obeikandl.com

الإحياء الإسلامي لمصر..
والإحياء المصري للإسلام

لم يكن الإحياء الإسلامي لمصر مقصورًا على الذين أسلموا من أهلها دون سواهم من شعبها فلقد كان الإسلام ـ كما مثلته الشريعة الخاتمة ـ هو «اللَّبِنَة» المتممة لمكارم الأخلاق الدينية ـ كل الأخلاق الدينية ـ. ومن ثم، فإنه قد استهدف إحياء كل مكارم الأخلاق الدينية لدى جميع أبناء الشرائع والرسالات السماوية التي سبقت شريعة الإسلام المحمدية.

وكان الإسلام هو الشريعة الخاتمة، التي تحيي ما لم يتجاوزه التطور وتصحح ما أصابه التحريف وتحقق ما حدث الاختلاف فيه، في كل شرائع السماء.

وكان الإسلام هو الدين الذي لا يكتمل إيمان المؤمنين به إلا إذا آمنوا بكل الرسل والرسالات، والأنبياء والنبوات، والكتب التي سبق وأوحى بها الله ـ سبحانه وتعالى ـ على مر تاريخ الرسالات الدينية.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

وكان الإسلام هو الدين الذي يعلِّم الناس أن تعدد البشر في الشرائع واختلافهم في الملل هو السنة الإلهية والقانون الديني الذي لا تبديل له ولا تحويل.

﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨﴾ (المائدة: ٤٨) ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ﴾ (هود: ١١٨ـ ١١٩).

ولذلك؛ كان الإحياء الإسلامي إحياء لمطلق الدين الإلهي الواحد، الذي تعددت فيه الملل والشرائع والرسالات والنبوات، وكان الإحياء الإسلامي، في مصر، تصحيحًا وتجديدًا واستئنافًا ترتفع به مجددًا راية التوحيد، التي رفعتها مصر منذ رسالة نبي الله

obeikandi.com

إدريس ـ عليه السلام ـ في فجر الاجتماع البشري؛فالإسلام كمال وتمام للدين الإلهي الواحد، وليس نقضًا ونفيًا لما سبقه من الدين!

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة: ٤٨).

ولأن أهل مصر قد عانوا الشدائد القاسية والمحن القاتلة في ظل القهر الروماني؛ فلقد رأوا في دولة الإسلام الحرية والتحرير المنقذين لهم من الهلاك، الأمر الذي جعل الإسلام لهم: الحياة والإحياء.

ونحن عندما نتأمل حوار «حاطب بن أبي بلعتة» ـ الحامل لكتاب رسول الله ﷺ إلى شعب مصر ـ مع «المقوقس» عظيم القبط؛ نطالع هذه الرؤية الإسلامية لعلاقة الإسلام بما سبق شريعته من شرائع السماء. فحاطب ـ الصحابي المسلم ـ يتحدث إلى المقوقس ـ النصراني القبطي ـ فيقول له:

ـ «وإن لك دينًا لن تَدَعَهُ إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافي الله به فقد ما سواه ـ (أي أن الإسلام شامل لحقيقة النصرانية، وزائد عليها، ومتجاوز لها) ـ، وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد. وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ـ (أي أن الإسلام مصدق لما بين يديه من كتاب، تصديق الإنجيل لما قبله من التوراة) ـ ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به».

فالفتح الإسلامي لمصر، لم يكن بالنسبة لأجدادنا أقباط مصر، أمرًا بالتخلي عن دين المسيح، وإنما كان دعوة للالتزام بحقيقة دين المسيح!. ومن هنا فلم يكن غريبًا أن يمثِّل هذا الفتح الإسلامي الإحياءَ الحقيقي لنصرانية الأقباط المصريين!.

لقد أعاد إليهم، لأول مرة في تاريخ النصرانية المصرية حرية العقيدة، وحرية الاختيار، وبعد أن كانت النصرانية عقيدة مضطهدة ومطاردة وهاربة، تقدم الضحايا والشهداء على امتداد

obeikandl.com

القرون الستة التي سبقت الفتح الإسلامي؛ تمتعت لأول مرة في تاريخها، بالحرية والأمان.

وبعد أن كانت كنائسها وأديرتها مغتصبةً من قِبَل مسيحية الدولة الرومانية الاستعمارية ـ «مسيحية بولس» ـ ومذهبها الملكاني ـ حرر الفتح الإسلامي هذه الكنائس الوطنية وأعادها إلى الأقباط، فكانت المرة الأولى التي يحرر فيها أهل دين مقدسات دين آخر، لا ليحوزوها لأنفسهم ودينهم؛ وإنما ليعيِّدوها إلى أبناء الدين المغاير!.

فكأن الإسلام- بذلك- هو الذي بنى كنائس مصر القبطية من جديد!.

وبعد أن كان البطرك القبطي «بنيامين» ـ أو «أبوميامين» ـ (٣٩هـ ـ ٦٥٩م) ـ وهو رمز النصرانية المصرية ـ ومذهبها اليعقوبي ـ هاربًا في الصحاري ثلاثة عشر عامًا.. منذ أن طلبه هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م) قيصر الروم؛ ليقتله، فلما هرب من هرقل، أحرق هرقل أخاه «مينا» ـ عداوة لليعاقبة، كما يقول المقريزي (٧٦٦ ـ ٨٤٥هـ ١٣٦٥ ـ ١٤٤١م)؛ جاء الفتح الإسلامي، فأرسل عمرو بن العاص إلى «بنيامين» بعهد الأمان و«كتب عمرو «لبنيامين» بطرق اليعاقبة أمانًا، في سنة عشرين من الهجرة، فسَرَّه ذلك، وقَدِم على عمرو، وجلس على كرسي بطركيّته بعد ما غاب عنه ثلاث عشرة سنة فغلبت اليعاقبة على كنائس مصر وديارتها كلها، وانفردوا بها دون الملكية..»[1].

وهكذا كرّس الفتح الإسلامي لمصر إحياء وازدهار وبقاء أعرق الكنائس الوطنية للنصرانية على الإطلاق وظل ذلك شاهدَ صدقٍ على ما مثَّله الإسلام في مصر من الإحياء الديني، لمطلق الدين وليس فقط لدين وشريعة الإسلام.

وكما استوعبت الحضارة الإسلامية علوم مدرسة الإسكندرية، التي بدأت ترجماتها العربية منذ القرن الهجري الأول، بتوجيه وقيادة ومشاركة الأمير الأموي خالد بن يزيد (٩٠هـ ٧٠٨م)؛ فلقد استوعبت هذه الحضارة الإسلامية كذلك ما سبقها من المواريث الدينية، والقيم الإيمانية، بل وغدا أبناء هذه المواريث صُنّاعًا

(١) المقريزي (الخطط) جـ٣ ص٥٣٤، ٥٣٥. طبعة دار التحرير. القاهرة.

obeikandi.com

وشركاء في هذه الحضارة الجديدة، التي مثلت بالنسبة للجميع جامع الانتماء الحضاري الواحد، الذي استوعب الموروث، ووظّفه في هذا البناء الحضاري الجديد.

فقبْل الفتح الإسلامي لمصر، كانت النصرانية المصرية مجرد «ثقافة مقهورة»، محرومة من صناعة الحضارة الخاصة بها، فلا «سياسة» ولا «دولة» ولا «اقتصاد» ولا «اجتماع». من سمات الحضارة وقسماتها ـ لأن «دنيا مصر ودولتها» ـ التي منها ولها وبها تتبلور الحضارة ـ كانت «هلينية ـ رومانية ـ استعمارية». فلما جاء الفتح الإسلامي، تحررت مصر وتحررت نصرانيتها، وغدت ـ في ظل الإسلام ـ مشاركةً في صنع الحضارة العربية الإسلامية، على قدم المساواة مع المسلمين.

***

أما على الجبهة الإسلامية ـ في البشر والعلوم ـ فإن دور مصر في الإحياء الإسلامي والإبداع الحضاري والثراء العلمي والتجديد الفكري والتميز في المنهاج؛ قد جسدته آلاف المجلدات. وفي مقامنا هذا تكفي إشارات إلى معالم هي أشبه بالعناوين:

● إن مصر قد وصلت «توحيد» خاتمة الرسالات السماوية ـ الإسلام ـ بتوحيد رسالة نبي الله إدريس ـ التي عاصرت آدم أبي البشر، وأولى الرسالات السماوية التي عرف التاريخ لها وطنًا تواصلت فيه ومضات هذا التوحيد ـ فكأنها قد أمسكت «خيط» التوحيد من طرفيه!.

● وهي قد وصلت خاتمة الحضارات ذات الصبغة الإلهية ـ الحضارة الإسلامية ـ بأعرق الحضارات الإنسانية ـ الحضارة المصرية القديمة ـ والتي بدأت، هي الأخرى، ذات صبغة دينية، عندما جاءت تعاليم علومها المدنية علمًا إلهيًّا بثه في المصريين نبيُّ الله إدريس، عليه السلام.

● ومصر، قد وقفت في مقدمة شعوب الإسلام التي مثلت وتمثل الوسطية الإسلامية ـ التي هي خصيصة الإسلام وأمته، كما أرادها الله، سبحانه وتعالى:

obeikandl.com

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

● ففي الاختلافات المذهبية: اختارت مذهب جمهور الأمة، مذهب أهل السنة والجماعة، مع حب لآل البيت ـ آل بيت رسول الله ﷺ ـ الذين ظلموا ـ فشاعت في أسمائها أسماؤهم، وقامت على أرضها مزاراتهم ـ دون أن يشوب هذا الحب غلو الإفراط عند الذين تعصبوا لآل البيت، ولا شوائب غلو التفريط الذي أصاب من ناصبوها العداء ـ **بل لقد ظل المسلمون المصريون يضعون شهداء أقباطها ـ في الصراع مع الرومان ـ ومزاراتهم في نفس مصاف الشهداء والقديسين والأولياء المسلمين!**.

● وفي المذاهب «الكلامية» ـ مذاهب أصول الدين ـ احتضنت مصر مذهب جمهور الأمة ـ أشعرية أهل السنة والجماعة ـ الذي حاول الجمع والتأليف بين عناصر الحق والعدل في مذاهب الإسلاميين، وكان هذا هو حال جامعاتها العلمية ـ وفي مقدمتها الأزهر الشريف ـ تلك التي احتضنت كل تراث الأمة وجميع مذاهبها، وتعاملت مع خلافاتها بأمانة ومسئولية وأفق لا يعرف تحيزات المتعصبين.

● وفي المذاهب الفقهية ـ مذاهب علم الفروع ـ اختارت مصر مذاهب أئمة أهل السنة والجماعة، وذلك دون أن تقف عند مذهب واحد منها، حتى لا تنمو فيها بذور التعصب المذهبي. لقد توزع جمهورها بين «المالكية» و«الشافعية»، وهما أكثر المذاهب الفقهية جمعًا ـ بالوسطية ـ بين «الرأي» و«الأثر» ـ مع دوائر، بين أهل مصر، «للأحناف» «أهل الرأي»، و«الحنابلة»، «أهل الأثر»، تعلن عن الوجود لهم والقبول بهم.

● وفي السياسة والدولة، سرعان ما أصبحت مصر الإسلامية ـ بعد فترة نقاهتها من الاضطهاد الروماني وقهره الحضاري ـ سرعان ما أصبحت «ولاية قائدة» و«إمارة رائدة» ثم غدت «كرسي خلافة» و«عرش سلطنة» أغلب قرون تاريخ الإسلام، وذلك بدءًا من الدولة الطولونية (٢٢٦ ـ ٢٩٢هـ ٨٧٩ ـ ٩٠٥م) فالدولة الإخشيدية (٣٣٣ ـ ٣٥٧هـ ٩٣٥ ـ ٩٦٩م) فالدولة

obeikandl.com

الفاطمية (٢٩٧ ـ ٥٦٧هـ ٩٠٩ ـ ١١٧١م) فالدولة الأيوبية (٥٦٧ ـ ٦٤٨هـ ١١٧١ ـ ١٢٥٠م) فالدولة المملوكية (٦٤٨ ـ ٩٩٢هـ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)؛ فعَلَى امتداد نحو سبعة قرون كانت مصر ـ في الدولة والسياسة ـ مقر الخلافة والسلطنة الجامعة لأغلب أقطار وأقاليم دار الإسلام.

● وفي مواجهة التحديات الشرسة التي اقتحمت ديار الإسلام ـ وأغلب تاريخنا تحديات! ـ حققت مصر في الممارسة والتطبيق نبوءة رسول الله ﷺ، التي أوصى فيها باتخاذ الجند الإسلامي فيها؛ لأنهم في رباط إلى يوم القيامة.. «اتخذوا فيها جندًا كثيفًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض؛ لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة».

صدّقت مصر وحققت ـ في الممارسة والتطبيق وعبر تاريخ الإسلام ـ هذه النبوءة النبوية؛ فكانت هي التي جيشت الجيوش وعبأت الجهود وجهزت الكتائب وقادت الجهاد وتقدمت الصفوف لمقاتلة الغزوة الصليبية (٤٨٩ ـ ٦٩٠ هـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م) والتحالف «الصليبي ـ المغولي» (٦٥٨ هـ ١٢٦٠م) ـ في «عين جالوت».

والالتفاف والتطويق البرتغالي للعالم الإسلامي ـ على شواطئ الهند ـ (٩١٠هـ ١٥٠٤م) والحملة الفرنسية (١٢١٣ ـ ١٢١٦هـ ١٧٩٨ ـ ١٨٠١م) وحملة «فريزر» الإنجليزية (١٢٢٢هـ ١٨٠٧م) والاحتلال الإنجليزي (١٢٩٩ ـ ١٣٧٥ هـ ١٨٨٢ ـ ١٩٥٦م) بل وقادت وموّلت وساعدت حركات التحرر الوطني ضد كل ألوان وقوى الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام، وما حول وطن العروبة وعالم الإسلام، ولا تزال حاملة لهذه المسئولية القيادية في مواجهة تحدي «الشراكة الإمبريالية ـ الصهيونية»، منذ قيام هذه «الشراكة» وحتى هذه اللحظات.

● أما في الإبداع الحضاري فلقد روت مصر ثمرات الإسلام من جذور إبداعها الحضاري القديم فكان لها الإسهام المتميز في مختلف علوم الحضارة الإسلامية، الشرعية منها والمدنية، علوم المقاصد وعلوم الأدوات والآليات: في علوم القرآن الكريم

obeikandl.com

وعلوم السنة النبوية الشريفة وعلوم العربية وآدابها وفنون القول والتثقيف للنفس الإنسانية وعلوم الفقه الأكبر وأصول الدين وعلوم الفقه وأصوله وعلوم السيرة والملاحم والقصص والتاريخ وعلوم البناء والتشييد وزخرفة الواقع وزينة المكان وعلوم الحرب والجهاد والقتال وعلوم السلم وتنمية العمران في الزراعة والصناعة والتجارة والحرف التي تواصلت فيها إبداعات الشعب عبر العصور والقرون.. إلى آخر كل ميادين الإبداع الحضاري، التي تتزين بها النفس والبيئة، ويصلح بها «المعاش» و«المعاد»!.

● بل إن مصر، التي لم تعرف التسامح الديني في تاريخها السابق على الإسلام ـ عندما استعرت نيران الاضطهاد الديني بين أتباع «آمون» وأنصار «إخناتون»، وطاردت الوثنية المصرية طلائعَ النصرانية الوافدة على أرضها، وتواصل الاضطهاد من الوثنية الرومانية ـ بل ومن نصرانيتها «الملكانية» ضد النصرانية القبطية «اليعقوبية» ـ حتى لقد سالت الدماء، وتوالت مواكب الشهداء، وهُدّمت المعابد والكنائس، وأحرقت المكتبات، وسُحل الكهنة والفلاسفة..! إن مصر هذه ـ التي اكتوت بنيران هذا التعصب الديني وذلك الاضطهاد المذهبي ـ سرعان ما كشف الإسلام عن معدنها الأصيل وخلقها النبيل، وذلك عندما تدينت بالإسلام، فعلمت وتعلمت أن سنة الله في الخلق هي التعددية في الملل والديانات، والاختلاف في المذاهب والفلسفات، فاستبدلت السماحة بضيق الصدر والأفـق، واستعاضت بالتعايش بين الديانات عن غرائز الواحدية المذهبية والأثرة الدينية، فغدت في العالمين مضرب الأمثال في القبول بالآخر الديني والتعايش السلمي مع المخالفين.

حدث ذلك لمصر، منذ أن وعت معنى الكلمات التي قالها حامل كتاب رسول الله ﷺ إلى «المقوقس» ـ حاطب بن أبي بلعتة ـ والتي خاطب بها «المقوقس» فقال:

ـ «ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به»!.

وزاد وعيها بهذا الموقف الإسلامي الجديد، عندما قرأت وحفظت ورتلت في صلواتها قول الله سبحانه وتعالى:

obeikandl.com

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥) ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨﴾ (المائدة: ٤٨) ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ (هود: ١١٨، ١١٩).

لقد بدأت مصر، بذلك طورًا جديدًا، أحيا فيه الإسلام سماحتها، فغدت سماحتها هذه من فضائل عالم الإسلام.

***

كل هذا صنعه الفتح الإسلامي بمصر وصنعته مصر للإحياء الإسلامي فكان هذا الفتح ـ الذي نطل على ذكراه الـ ١٤٠٠ (أربعة عشر قرنًا على تمامه) ـ عيد ميلاد مصر الإسلامية، وإيذانًا بعودة كنانة الله في أرضه إلى موقعها القائد ومكانتها الرائدة في صناعة الحضارة، وقهر التحديات، والتصدي للاستكبار والاستغلال، وتحرير ملكات وطاقات الإنسان واسترخاص كل غالٍ وبذل كل نفيس في سبيل حمل هذه الأمانات.

وإذا كان هذا الفتح الإسلامي لمصر (سنة ٢٠هـ ٦٤٠م) قد أعاد إلى مصر عافيتها الحضارية، فغدت القائدة والرائدة في سائر ميادين الفتوح، عبر تاريخ الإسلام، وإذا كانت قد صنعت ذلك بالإسلام، وله ولأمته وحضارته وعالمه؛ فإن أفضل احتفال بذكري هذا الفتح العظيم هو الذي يسدد خطوات مصر على هذا الطريق.. طريق العزة بالإسلام وتحقيق العزة للإسلام والمسلمين.

بل إننا مدعوون إلى تحقيق وتحرير التواريخ التي شهدت فيها مصر رسالات وصحوات وومضات التوحيد الديني، عبر تاريخها الطويل ـ منذ رسالة إدريس ـ عليه السلام ـ وحتى رسالة محمد، خاتم الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ. وعبر رسالة موسى وهارون والمسيح عيسى ابن مريم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

إننا مدعوون إلى تحقيق وتحرير تواريخ استقبال مصر لأنوار

obeikandl.com

التوحيد الإلهي والشرائع السماوية؛ لتكون هذه التواريخ أعيادًا قومية يشارك في إحيائها كل المتدينين بديانات التوحيد، في هذا البلد الآمن، الذي حمل أهله هذه الأمانة عبر هذا التاريخ الطويل والعريق.

فلنحتفل بعيد ميلاد مصر الإسلامية الذي يقبل علينا مرور أربعة عشر قرنًا على ذكراه، ولنحتفل بعيد ميلاد النصرانية في مصر ـ منذ القرن الميلادي الأول ـ.

ولنحتفل بنصر الله توحيد موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ على استبداد الفرعونية واستغلال القارونية، ولتكن أعياد التوحيد الإلهي هي الأعياد الموحدة لكل المصريين بل ولكل العرب والمسلمين[1].

(١) تلك هي الدراسة التي كتبناها ونشرناها مع مقدم ذكرى مرور أربعة عشر قرنًا على الفتح الإسلامي لمصر سنة ١٤١٨هـ والتي حملت عنوان: [عندما دخلت مصر في دين الله].

obeikandl.com